مؤثرات فقهية على عمارة المساجد التركية

د. طلال بن محمد الشعبان

أستاذ مشارك - قسم الآثار - كلية السياحة والآثار - جامعة الملك سعود

مؤثرات فقهية على عمارة المساجد التركية

د. طلال بن محمد الشعبان

أستاذ مشارك - قسم الآثار - كلية السياحة والآثار - جامعة الملك سعود

تُعد العقيدة التي تعتنقها الدولة والجماعة عاملاً من أهم العوامل المؤثرة في تشكيل العمارة. كما أن الجغرافيا والمناخ والوضع الاقتصادي، ومعايير الفن الموجودة لدى الدول المجاورة والموروثة، والذوق الوطني والشخصي للأشخاص الذين شيدوها، بالإضافة إلى الأوضاع الاجتماعية تلعب هي الأخرى دوراً كبيراً تشكيل هذه العمارة[١].

والواقع أن الأثر العقائدي أمر ملحوظ ومهم في العمائر الدينية بصفة خاصة لدرجة أننا نشاهد بعض أوجه التشابه في العمائر الدينية سواء المسيحية أو الإسلامية[٢].

غير أن اختلاف العقائد والمؤثرات الفلسفية أدت لا محالة إلى اختلاف الأسلوب المعماري فعلى سبيل المثال يتم تشييد الكنائس في مخطط صليبي بصفة عامة وفقاً للدين المسيحي ، وبرسم على الجدران السميكة صور لسيدنا عيسى عليه السلام والسيدة مريم العذراء والشخصيات الدينية الكبرى. أما في الإسلام فإن الشريعة الدينية تقتضي أن يتم تشييد الجوامع بشكل بسيط خال من الصور أو النقش، وأن تزخرف الجدران بزخرفة وأشكال غير آدمية ، فمثلاً يمكن أن نأخذ لهذا التخطيط كاتدرائية (spire) التي شيدت في روما في القرن ٥هـ/١١م[٣] وكنيسة سانت جاكوس دي

(١) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل (مصر: دار المعارف، ١٩٦٢م)، ص ٢٩٧، ٣٠٢.

(٢) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية: عصر الولاة، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٤م)، ص٤٠، ٤١، ٧٧، ٧٨؛

Creswell, K.A.C, Early Muslim architecture, Vol,1,2, oxford, 1969; Brigcs, M.S, Muhammaden archtecture in Egypt and Palestine, oxford, 1924.

Babelon, J, Histoire de I, Art II, Fransa, 1966, p. 421.

(٣) Babelon, J, Histoire de I, p. 533.

(٤٤٩-٥٤٨هـ/١٠٥٧- ١١٢٨م) شكل (١،٢)، ومن المعروف أيضاً أن النظافة في الإسلام لعبت دوراً كبيراً في إيجاد منشآت مائية من اجل الوضوء والطهارة مثل الحمامات والأسبلة والأحواض والفساقي. وكذلك فإن ما ظهر من مؤثرات وجدت بتأثير فلسفي لبعض الطرق الصوفية وعلى رأسها البكتاشية[١].

والمولوية[٢] والقلندرية[٣]، وترتب عليه ظهور العمامة (الطربوش) (لوحة رقم١)[٤].

وإذا انتقلنا إلى العمائم والرايات والسناجق[٥] (لوحة رقم٢) سنجد أشياء وفروقاً في علاماتها الخاصة كما أننا نعلم أن ظهور صنبور المياه (الحنفية) كان لغرض الوضوء بناء على فتوى للإمام أبو حنيفة بأنه لا يجوز الوضوء من ماء راكد ما لم يكن على عمق عشرة أذرع وسعة عشرة أذرع[٦] (لوحة رقم٣).

(١) البكتاشية: ظهرت البكتاشية كطريقة مستقلة في القرن ١٠هـ/١٦م، إلا أن صلتها بالطريقة القلندرية لم تنقطع. فقد كان شعراء البكتاشية في تلك الآونة يذكرون أنفسهم بأنهم بكتاشية وحيدرية وقلندرية على السواء. وهكذا قامت تحت حماية الدولة العثمانية في القرن ١٠هـ/١٦م، وظلت على ولائها للسلطة المركزية العثمانية خلال تاريخها كله تقريباً حتى قام السلطان محمود الثاني عام ١٨٢٦م بإلغاء أوجاق الإنكشارية. غير أن البكتاشية لم تجد أبداً فرصة الإنتشار في الدول الإسلامية الأخرى التي من السمات الدينية الموجودة في الأناضول، اللهم إلا بعض الزوايا القليلة في مصر والعراق، أكمل الدين إحسان، أوغلي، الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، نقلة إلى العربية: صالح صعداوي، المجلد الثاني (استانبول، ١٩٩٩م)، ص ١٨٧-١٨٩.

(٢) الطريقة المولوية: من المعروف أنها لم تتشكل في حياة جلال الدين الرومي نفسه، بل بعد وفاته أي بعد ١٢٧٣م وقد انتشرت هذه الطريقة الصوفية على أيام أولو عارف جلبي وبجهوده الشخصية وفي ظل العلاقات الوطيدة التي أقامها مع الحكام الأناضول. ثم لم تلبث هذه الطريقة المولوية أن أقامت تكاياها في الحواضر الثقافية الكبرى دون غيرها في القران ٨هـ/١٤م بوجه خاص وجذبت إليها أنظار السلطات المحلية والتجمعات الحضرية وأوساط الطبقة المثقفة واستمرت على ذلك ويمكن القول أن بداية نهضة المولوية في الأراضي العثمانية ربنا وقعت نحو أواسط القرن ٩هـ/١٥م. كما أكمل نضجها في بداية القرن ١١هـ/١٧م وقد أصبحت المولوية منذ ذلك القرن على رأس الجماعات الصوفية الأكثر تقديراً في الدولة العثمانية، أوغلى، الدولة العثمانية، ص ١٧٩-١٨١.

(٣) القلندرية أو أبدال الروم: وهم الدراويش أتباع بابا الياس وحاجي بكتاش- وكانوا من الدراويش المجاهدين المحاربين ضمن جماعات الحركة البابائية عام ٦٣٧هـ/١٢٤٠م، وهؤلاء الدراويش هم الذين قدمتهم لنا كتب المناقب على أنهم أولياء شجعان ينقضون على العدو بسيوف خشبية وكانوا يقدسون شخصين بارزين في القرن ١٤ م أحدهما بابا الياس الخراساني (ت ١٢٤٠م) والثاني هو حاجي بكتاش ولي ويحتل أتباع هؤلاء مكانة فريدة في التاريخ الديني للدولة العثمانية ، حيث بدأ نشاطهم في الأناضول على أيام السلاجقة في القرن ١٣م .

Karamagarali, B, Anadolu,da Tarikat ve Tekke Sanati, A. U. I. I ahiyat Fakultesi Dergisi XXI,

Ankara, 1976, s. 248. (٤)

Karamagarali, B, Anadolu,da Tarikat ve Tekke Sanati, s. 263 (٥)

HurattoCI, Hanefiye, Islam Ansiklopedisi, s. 5/1, Istanbul, 1964, s. 214. (٦)

وإزاء ذلك الوضع، يتبادر إلى الذهن سؤال: ترى ما هي المؤثرات التي تركتها بعض قضايا الفقه ومذاهبه على الفن الإسلامي عامة وعمارة المساجد التركية خاصة؟

يبدو أن هذه المؤثرات الفقهية كانت على درجة من الأهمية بمكان، من حيث تأثيرها على عناصر العمارة التركية، ولذا سوف نحاول في هذا البحث استقصاء مدى تأثير بعض القضايا الفقهية والمذهبية على عمارة المسجد التركي.

يجدر بنا قبل الخوض في موضوعنا ، أن نطل إطلالة سريعة على تاريخ ظهور المذاهب الفقهية في الإسلام وانتشارها في العالم الإسلامي والعلاقات التي بين المذاهب وبعضها البعض ، فنحن نعلم أن المذهب الحنفي الذي أرسى قواعده الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الملقب بالإمام الأعظم (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧ م) هو أول مذهب إسلامي ظهر، وكان العباسيون أول من تمذهب به، والعثمانيون أخرهم، وقد انتشر في العراق وسوريا وتركيا، والأرجح أن الأتراك يشكلون أكثرية الذين تمذهبوا به، فقد أكدت المصادر المعاصرة ومن أهمها كتب الرحالة المسلمين من العصور الوسطى أن «جميع بلاد الروم (تركيا الحديثة) على مذهب الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه[١]، كما انتشر المذهب الحنفي بشكل واسع في مصر أيضاً، فلما فتح العثمانيون الأخيرة، عينوا بها قاضياً حنفياً بجانب القضاة الآخرين وجعلوه رئيساً عليهم[٢]. وفي بعض البلاد كانوا يطلقون على المذهب الحنفي (مذهب الأتراك) وحالياً فإن من يتمذهبون بالمذهب الحنفي يشكلون ثلثي المسلمين[٣]، أما فيما بين الأتراك الذين في شرق الأناضول وآذربيجان قفقاسيا فإن المذهب الشافعي يشكل المرتبة الثالثة من حيث المذاهب التي تمذهبوا بها، بمعنى أنه في تلك الأنحاء كان يتم التمذهب بمذهبين معاً[٤] ولقد اتخذ

(١) ابن بطوطة، تحفة الأنظار، مج٢، ص١٦١.

Islam Ansiko Pedisinin Hanefiler md , 5/1, 5.212

(٢) Uzuncarcili, I.H., Osmanli Devletinin Ilmiye Teskilati, Ankara, 1965, s.174.nl

(٣) EbuZehra, M, Islamda Fikhi Mezhepler Tarihi, (cev. Abdulkadur Sener), Istanbul, 1978, s. 359.

(٤) Kirzioglu, M. F., Osmanlilarin Kafkas Ellerini fathi, Ankara, 1976, s.307-375;

المذهب الشافعي مذهباً رسمياً للأيوبيين، ووجد أنصار له في خراسان وما وراء النهر لفترة محدودة حتى أننا نعلم أن معتنقوه كانوا يشكلون الأكثرية في العصور المتأخرة التي سبقت الحكم العثماني مباشرة بيد أن الأتراك لم يكن لديهم ميل أو رغبة في المذهب الحنبلي الموجود في شبه الجزيرة العربية، والمذهب المالكي الموجود في شمال إفريقيا.

وعلى الرغم من وجود جماعات في سوريا ومصر على سبيل المثال تتمذهب بالمذاهب الأربعة، فإنه تم توحيد هذه المذاهب في الأناضول بفضل الجهود التي بذلها العثمانيون فقد نجح العثمانيون في جذب أهل الأناضول إلى التمذهب بالمذهب الحنفي لأن ذلك من شأنه أن يحقق السهولة في إدارة أمة غير متجانسة[١] فلا ريب أن العصبية المذهبية كانت مستعرة حينئذ فقد كان في عهد العباسيين صراع بين الشافعية والحنابلة في بغداد كما حدث صدامات عديدة بين الشافعية والحنفية في أنحاء مرو وأصفهان، فدّمر بعضهم بيت بعض، وأخرج الغالبون المغلوبين من ديارهم، لدرجة أن الإمام الطبري بسبب عدم أخذه بوجهة نظر الإمام أحمد بن حنبل في أحد مؤلفاته، دمّر الحنابلة بيته، ولما توفى أتوا على البقية الباقية منه، ليلاً[٢].

وفي هذا السياق فإن (مسألة العرف) تعتبر تفرداً لعلماء الحنفية الذين يعتبرون العرف دليلاً شرعياً بينما في المذاهب الأخرى لا ترى غير النص الشرعي مثلاً في الآيات والأحاديث ، في حين يضع الحنفية الرأي والاجتهاد بجانب النص الشرعي. وفي ظل ذلك المنهج فإن المذهب الحنفي يتمتع بديناميكية كبيرة ومن الطبيعي أن اتخاذ هذا المذهب كمذهب رسمي قد لعب دوراً كبيراً في مكانة شرعية له[٣].

أما عن مكانة الفقه في حياة الأتراك فيحدثنا أبن بطوطة الذي زار تركيا في رحلته الشهيرة أبان القرن ٧هـ/١٣م عن «عزة الفقهاء وعند الترك وكيف كان الفقيه

(١) Evliya Celebi Seyahatnamesi, 1-2, Istanbul, 1976, s. 518.

(٢) Eserleri, Ramazanogullari Mimari, basilmamis doktora tezi, Ankara, 1979, s.12.

(٣) Karaman, H, Islam Hukukunda Icinde, Ankara (Tarihsi 2), د.ت.s.146. ve172 ,

يجلس في صدر مجلس السلطان ، بينما يعقد السلطان عن يمين الفقيه والقاضي مما يلي الفقيه»[١].

وبعد تلك المقدمة الصغيرة ، يتحتم علينا الدخول في صلب موضوع البحث عن تأثير بعض المسائل الفقهية والاختلافات المذهبية على عمارة المساحد التركية ولسوف نرى في البداية أن مكان صلاة الجمعة كان مثاراً كقضية هامة، فهل تؤدي الصلاة في أحد المساجد الكبرى فقد، أم في أكثر من مسجد في داخل المدينة الواحدة؟ وسنرى تأثير هذه القضية على عمارة المسجد التركي.

انعكست الرؤية الفقهية لشروط الصلاة الجامعة على المسجد الجامع انعكاساً واضحاً، بل أنها امتدت لتحديد حدود المدينة ذاتها وتحديد وظيفة المنشآت الدينية الأخرى فقد كان لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتصلة بالمراكز الحضارية التي تقام فيها الصلوات الجامعة – تخلص إلى عدم إقامة الصلوات الجامعة إلا في « مصر جامع أو مدينة عظيمة « أثر كبير على عدم إقامة أكثر من مسجد في المدينة الواحدة ، تقام فيه الصلوات الخمس في خطط المدينة ، وهي التي سماها القلقشندي (مساجد الخمس) تمييزاً لأداء الصلاة الجامعة[٢].

من المعروف أن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام كان يصلي بالمسلمين صلاة الجمعة في جامع واحد بالمدينة هو المسجد النبوي الشريف، وبمرور الوقت ضاق هذا المسجد على المصلين فتم توسعته عدة مرات أولها في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، ثم الخليفة عثمان بن عفان ثم في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك[٣].

وعلى نفس الشاكلة ففي كل البلاد الإسلامية توجد مساجد صغيرة وبجانبها جوامع

(١) Ebu Zehra, M, Ebu Hanife (ver oglu), Ankarq, 1962, s. 313

(٢) زار ابن بطوطة هذه المنطقة في أوائل عام ٧٣٣هـ، أي بعد سقوط دولة سلاجقة الروم بما يزيد قليلاً عن ثلاثين سنة فقال عن أهلها: «وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام ابي حنيفة رضى الله عنه، مقيمين على السنة، لا قدرى فيهم ولا رافضى ولا معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع، وتلك الفضيلة خصهم الله بها»، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٣١٢.

(٣) عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨٨م)، ص٢٣٦.
Creswell, K.A.C., Early Islamic Architecture, 1/1, Oxford, 1969, p. 8.

يسمى الواحد منها الجامع الكبير أو مسجد الجمعة.

ولنأخذ على سبيل المثال الجامع الكبير في الكوفة ويتسع لحوالي عشرين ألف مصلي، وأيضا الجوامع الكبيرة في قرطبة وحرّان والمسجد الأقصى، تلك الجوامع تمت توسعتها عدة مرات بحسب الحاجة فالمسجد الأقصى على سبيل المثال تمت توسعته خمس مرات على الأقل حتى عهد الفاطميين، كل ذلك كان بسبب أن يكون الجامع واسعاً بحيث يتسع للإمام والمصلين[1]. وفيما بعد ازداد عدد السكان في المدن فصار من المتعذر أن يتسع المسجد الجامع المصلين وبخاصة في صلاة الجمعة مما استوجب تخصيص أكثر من جامع واحد في المدينة الواحدة لإقامة صلاة الجمعة، وصارت تلك قضية مطروحة. فمدينة مثل بغداد التي يتوسطها النهر حازت هذه القضية بها على درجة كبيرة من الأهمية.

وكما ذكرنا من قبل فإن الإمام أبو حنيفة لكونه كان يولى القياس والاجتهاد أهمية كبيرة بجانب النص الشرعي فإنه رأي جواز إقامة صلاة الجمعة في أكثر من جامع في المدينة الواحدة في وقت واحد[2]. ويجوز بناء المساجد الكثيرة في البلد ولو صغيرة ولا حجر على أحد في ذلك ، نعم لا يجوز تعديد الجمعة في بلد إلا إذا ضاق مسجدها عن أهلها فلهم حينئذ بناء مسجد آخر وإقامة جمعة ثانية فيه بخلاف ما إذا وسعهم مسجدها فليس لحد بناء مسجد لأجل إقامة جمعة أخرى فيه لامتناعها حينئذ، إذا أقيمت جمعتان أو أكثر في بلدة أو قرية واحدة مع عدم الاحتياج إلى التعدد بأن كان بين أبنية البلد مسجد أو فضاء يسع أهلها فحينئذ لا يجوز لهم تعددها بخلاف ما إذا لم يكن فيها محل يسعهم فإنه لا يجوز لهم التعدد بقدر الحاجة فإن زاد التعدد على الحاجة فالسابقة إذا علمت هى الصحيحة والمعتبر لهم التعدد بقدر الحاجة فإن زاد التعدد على

(١) Creswell, Early Islamic Architecure, V2, p. 374- 375.

(٢) ابن حجر المالكي الهيتمي (٩٠٩-٩٧٤هـ)، الفتاوي الكبرى الفقهية، الجزء الأول (طبع في مصر)، ص ٢٣٤.

الحاجة فالسابقة إذا علمت هى الصحيحة والمعتبر في السبق راء تكبرة إحرام الإمام وان لم تعلم السابقة أو علمت ثم نسيت وجب الظهر على الجميع وأن علم وقوعهما معاً، أو لم يعلم سبق ولا معية أعيدت الجمعة، أن اتسع الوقت وينذب لهم ان يقيموا الجمعة ثم الظهر[1].

وإن الجمعة لا يجوز تعددها عند الإمام الشافعي رضى الله عنه وعند كثير من العلماء إلا أن احتيج بأن لم يكن في البلد محل يسع أهلها فحينئذ يجوز التعدد بقدر الحاجة فقط وأنه لا يشترط لأقامتها السجد وجبت إقامة الجمعة فيه وإنه إذا وقع تعدد غير محتاج إليه كانت الجمعة الصحيحة هي السابقة[2] والعبرة في السبق بالتحرم لا بغيره وأن الإمام أو نائبه إذا أمر بما لا معصية فيه وجب امتثال أمره وعلى من خالفه التعزيز الشديد الزاجر لأمثاله، وأنه يجوز للعامي أي من لم يتأهل لمعرفة الأدلة على قوانينها تقليد من شاء من الشافعي ومالك وغيرهما وما لم يتتبع الرخص أو يحصل تلفيق لا يقول به أحد ممن قلدهم فإذا تقررت هذه القواعد علم أنه يجب على أهل البلد المقلدين للشافعي رضى الله عنه الإجتماع للجمعة في محل واحد من البلد حيث أمكن ومن خالفوا ذلك وصلوا صلاة فاسدة أثموا وفسقوا وردت شهادتهم وعزرهم الإمام التعزيز البليغ[3].

أما الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ/٧٦٧-٨١٩ م) فقد قال في كتابه الأم بعنوان: الأرض تكون بها المساجد «إذا اتسعت البلد وكثرت عمارتها فبنيت فيها مساجد كثيرة عظام، لم يجز عندي أن يصلي الجمعة فيها إلا في مسجد واحد وكذلك إذا اتصلت بالبلد الأعظم منها قريات (قرى) صغار لم أجب أن يصلي إلا في المسجد الأعظم وان

(١) ابن حجر، الفتاوي الكبرى الفقهية، ص ٢٣٥.

(٢) ابن حجر، الفتاوي الكبرى الفقهية، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٣) ابن حجر، الفتاوي الكبرى الفقهية، ص ٢٥١.

صلى في مسجد منها غيره صليت الظهر أربعاً وان صليت الجمعة أعاد من صلاها فيها[1].

وتصلى الجمعة في المسجد الأعظم فإن صلاها الإمام في مسجد من مساجدها أصغر منه كرهت ذلك له وهى مجزئة وأن صلى غير إمام في مسجدها الأعظم والإمام في مسجد أصغر فجمعة الإمام ومن معه مجزئة ويعيدون الآخرون الجمعة.

وقال الإمام الشافعي رضى الله عنه في عنوان آخر من كتابه السابق هو الصلاة في مسجدين فأكثر: «ولا يجمع في مصر وإن عظم أهله وكثر عامله ومساجده إلا في موضع المسجد الأعظم وان كانت له مساجد عظام لم يجمع فيها إلا في واحد وأيها جمع فيه أولاً بعد الزوال فهي الجمعة وإن جمع في آخر سواه بعده لم يعتد للذين جمعوا بعده بالجمعة وكان عليهم أن يعيدوا ظهراً أربعاً وسواء الذي جمع أولاً الوالي ومأموراً أو رجل أو تطوع أو عزل فأمتنع من العزل بمن جمع معه أجزأت عنه الجمعة ومن جمع مع الذي بعده لم تجزه الجمعة وإن كان والياً وكانت عليه إعادة الظهر وهكذا إن جمع من العصر حتى مواضع فالجمعة الأولى وما سواها لا تجزئ إلا ظهراً[2].

والذي كان مذهبه واسع الانتشار في مصر وسوريا فإنه أفتى بعدم جواز ذلك ولم يؤيد وجهة النظر السابقة حيث كان يرى أن صلاة الجمعة إذا صليت في جامعين في مدينة واحدة في وقت واحد فأن صلاة أحدهم باطلة وانتهى إلى وجوب صلاة الجمعة في جامع واحد فقط في كل مدينة. أما وجهة نظر فقهاء الحنابلة في هذا الموضوع فقد كانت مطابقة تماماً لفقهاء الشافعية ويروى أن الناصر صلاح الدين الأيوبي الشافعي المذهب عندما اعتلى العرش في عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، عين رئيساً للقضاة من الشافعية، وأمر أن تؤدي صلاة الجمعة في أكبر جامع بمدينة القاهرة المعروف باسم جامع الحاكم

(١) الشافعي، الإمام أبي عبد الله محمد، الأم، الجزء الأول (طبع في مصر، ١٩٨٨م)، ص ١٧١.

(٢) الشافعي، الأم، ص ١٧١.

٣٨٠هـ/٩٩٠م[١].

ويبدو أن ظاهرة تعدد المساجد الجامعة في مدن بلاد الشام ومصر بدأت في الإنتشار منذ القرن ٨هـ/١٤م، حيث يذكر السبكي أن هذا «حصل في الشام من التعدد حادث» ثم قال: أن دمشق من فتوح عمر إلى اليوم وهو شهر رمضان سنة ٧٥٦هـ لم يكن في داخل سورها إلا جمعة واحدة، وقد أقيمت في عهده رحمه الله خارج السور في ثلاثة جوامع، جامع خليجان خارج الباب الشرقي وكان يخطب فيه شمس الدين ابن القيم والآن أندثر هذا الجامع ....، وجامع يلبغا وجامع تنك، وقد اعتبر محلاتها كقرى، لأن كل واحد ينفصل عن الآخر[٢].

ومما يشير إلى التمسك بالأحكام الفقهية ما كان في القاهرة حيث كان فيهما أربعة مساجد جامعة وهى: جامع عمرو(٢١هـ/٦٤٢م) وجامع ابن طولون ٢٦٥هـ/٨٧٩م والجامع الأزهر٣٨٠هـ/٩٩٠م وجامع الحاكم وكان تناوب الصلاة الجامعة فيها قائماً حتى أفتى الفقهاء بجواز إقامة أكثر من صلاة جامعة في المدينة، فتعددت الخطبة وكثرت المساجد الجامعة كثرة واضحة من بداية العصر المملوكي في مصر والشام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[٣].

وبناءً على ما ذكره ابن نجيم فإن فقهاء الحنفية في بلاد الإسلام الواقعة في الشرق مثل مرو وبخارى طلبوا الفتوى القاطعة في مسألة إقامة صلاة الجمعة في أكثر من جامع في المدينة الواحدة واستحدثوا ما أسموه صلاة الظهر الأخير حتى لا يأخذون بصلاة الجمعة وهكذا تم جواز صلاة الجمعة في أكثر من جامع في المدينة الواحدة حتى مسمى صلاة الظهر الأخر، وراح ذلك ينتشر شيئاً فشيئاً، استناداً إلى ما ذكره ابن

(١) Pedersen, J, Mescid ' Islam Ansiklopedisi, C.8, Istanbul, 1971, s. 17.

(٢) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٢٣٨.

(٣) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ١١٣.

نجيم أيضاً بخصوص صلاة الظهر الآخر فقد ظهر فقيه حنفي في بلخ أسمه الحاكم الشهيب محمد ابن محمد المتوفي في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ودعم جواز صلاة الظهر الأخير في أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد في كتابه له يسمى الكافي في خروج الحنفي، ومن ثم فإن بخاري وما حولها كانت من أوائل المناطق التي أجيزت فيها صلاة الظهر الأخير في أكثر من جامع، أي أن بخاري في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد أي في زمن الأصطخري كانت تقام بها صلاة الجمعة في ثلاثة جوامع هى الجامع القديم، وجامع قم، وجامع ريجستا (Ricist) وهناك رواية أخرى تفيد أنه تم تشييد كثير من المساجد لهذا الغرض في القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد.

ولا ريب أن تلك المسائل الفقهية التي أشرنا إليها قد كان لها انعكاس على التخطيط الأولى لعمارة الجوامع ويظهر ذلك بوضوح في بناء الجوامع في العصور التي لم يكن قد انتشر فيها مبدأ جواز صلاة الجمعة في أكثر من جامع في المدينة الواحدة مثلما حدث في الكوفة (١٥هـ/٦٣٦م) (شكل٣) وسامراء (٢٣٥هـ/٨٥٠م) (شكل٤) (٨٥٢م) أبو دلف (٢٤٥هـ/٨٦٠م) (شكل٥) وقرطبة (١٧٠هـ/٧٨٦-٩٨٧م) (شكل٦) وجامع الحاكم في القاهرة (٣٨٠هـ/٩٩٠ م) (شكل٧).

أما فقهاء الحنفية الذين أجازوا صلاة الجمعة في أكثر من جامع في المدينة الواحدة فإن البلاد المعتنقة لمذهبهم امتداداً من الولايات الشرقية للعباسين مثل طاري خانة التي في دمغان (شكل٨) حتى مسجد الجمعة الذي في نايين كلها كانت مساجد صغيرة (تقريباً٣٩×٤٦م) وبالرغم من هذا فإن عدد المساجد التي أجاز الحنفية صلاة الجمعة فيها قد تزايد بدأ أنه كانت أحجامها صغيرة فمثلاً يذكر بدرسين أنه يوجد بالبصرة عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م) سبعة آلاف مسجد في مقابل ثلاث جوامع فقط وكذلك كان يوجد في سامراء جامع واحد ، وقد ذكر المؤرخ الإسلامي المشهور اليعقوني

(٢٧٨هـ/٨٩١م) أن بغداد كان يوجد بها جامع العقد (سراي) وجامع في شرقها وجامع في غربها، غير أن عدد الجوامع في بغداد راح يتزايد منذ أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد فقد شيد بها الجامع الرابع بعد عام (٣٥٩هـ/٩٥١م) وشيد بها الجامع الخامس عام (٣٧٩هـ/٩٩٠م) ثم شيد الجامع السادس بعد ذلك بأربع سنوات واللافت للنظر أن القاهرة حتى عصر الفاطميين كان يوجد بها جامعين، الجامع الأزهر عام (٣٥٩هـ/٩٧٠م-٩٧٢م) فالفاطميون الذين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي قد خالفوا ما كان يتبع الحكماء القدماء في مصر، المدافعون عن مبدأ إقامة صلاة الجمعة في جامع واحد في كل مدينة.

والواقع أن فقهاء الحنفية قد أقاموا فتواهم استناداً على عوامل اجتماعية مثل زيادة عدد السكان في المدن ، بحيث كانت لا تستوعب (الجوامع) الزيادة المطردة في عدد السكان في مدينة بغداد على سبيل المثال كانت تعداد سكانها عام ٨٠٠م مليونين من البشر كان يوجد بها حتى منتصف الرابع الهجري/ القرن العاشر للميلاد جامعان أو ثلاثة، فكان لابد من زيادة عدد الجوامع فإذا كان عدد السكان هو العامل الأهم في ذلك الموضوع كان من الأهمية بمكان إذن أن يزداد عدد الجوامع في الأعوام التالية ومن ثم أجاز العباسيون إنشاء كثير من الجوامع لصلاة الجمعة في بغداد وفقاً للمذهب الحنفي.

ولقد كانت مساحة الجامع الكبير في سامراء (٢٦٠ × ١٨٠م) ومساحة الجامع الكبير في قرطبة (٢٤٧×١٥٧م) وجامع أبو دلف في سامراء (٢١٣×١٣٥م) وبرغم أن هذه المساحة قد تبدو كبيرة فإن القباب الواسعة التي بنيت على تلك المساحة لم تكن تغطي المكان بالشكل المناسب في الحجم فقد أهمل ذلك في بناء هذه الجوامع مما نتج عنه نظام التغطية (المسطحة) والواقع أننا نصادف ما يمكن أن نسميه قبة بقطر ٢٠,٣٣ متر مربع قبة الصخرة ٧٣هـ/ ٦٩١هـ تلك التي تعتبر أثر أكمل قداسة كبيرة

عند المسلمين هي الصخرة المقدسة تلك القبة صارت من اللوازم الأساسية في العمار التركية لدرجة إنها أضحت كالعقيدة عند الأتراك وسمة مميزة للعمارة التركية، والذي نرجحه أن السبب في هذا كان راجعاً إلى الاعتقاد بأنه من غير الممكن تغطية مسجد غير كبير الإبعاد بقبة أو بقبتين ذلك أقوى عندنا من عدم وجود تعود اجتماعي على ذلك في عمارة القبة.

والخلاصة أن القبة كانت مهملة تماماً قبل الأتراك لدرجة أنه لا يمكن وجود إي قبة أمام المحراب الخارجي ومن الطبيعي أن هذا الموضوع الذي نناقشه ليس هو العامل الوحيد الذي انعكست تأثيراته على عمارة القبة في العصور الأولى إذ أنه من المحتمل أن يكون العرب قبل الإسلام أطلعوا على نظام القبة والتغطية ولربما أيضاً أن يكون ذلك النظام لم يتطور في العمارة من جزيرة العرب جملة القول أنه نجم عن اختلاف وجهات النظر الفقهية المتعلقة بإمكانية إقامة صلاة الجمعة في عدة جوامع في المدينة الواحدة أن أستمر نظم التغطية والقباب المأخوذ من عصور ما قبل الإسلام في الجوامع التركية المتوسطة الحجم التي تمت إقامتها بعد اعتناق الأتراك للإسلام وظل ذلك نظاماً أساسياً مزدهراً بمرور الزمان والذي يؤكد هذا الرأي هو الجوامع التي بنيت في عهد القراخانيين (٨١٠هـ/١٤١٢م) كما يؤكد ذلك أيضاً الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطه الذي زار تركيا في نهاية العصور الوسطى لاحظ وجود نظام التغطية والقباب في مساجدها فعندما مر بمدينة ايا سلوق (سيلكوك الحالية في تركيا) وجد المسجد الجامع بها كان كنيسة للروم فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجداً جامعاً وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الأبيض وهو مسقف بالرصاص وفيه إحدى عشرة قبة منوعة وفي وسط كل قبة صهريج ماء « وعندما مر أيضاً بمدينة صنوب (سينوب الحالية على البحر الأسود) وصف مسجدها الجامع بأنه من أحسن المساجد وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها

مجلس يصعد له على درج خشب وذاك من عمارة السلطان برواناه وكان يصلي الجمعة بأعلى تلك القبة.

كما أسلفنا فإنه يتضح لنا أن اختلاف المذاهب ترك تأثيراً على عمارة الجوامع حتى صارت متباينة ومختلفة في بعض الأحيان وكما هو معلوم أن المسلمين الذين يعتنقون مذهب أهل السنة لهم أراء عميقة مختلفة في الأسس المتعلقة بالصلاة فإنهم أيضاً يختلفون في مواقيت الصلاة وعدد ركعات السنة وبعض المفاهيم الأخرى المتعارضة تلك الاختلافات أدت في بعض الأحيان إلى أن يأبى معتنقوا بعض المذاهب الصلاة خلف الإمام من مذهب آخر بل جعلت كل مذهب يشيد له مساجده الخاصة وأحياناً تمت إقامة محاريب منفصلة خاصة بكل مذهب في بيت الصلاة نفسه ونشاهد من أمثلة ذلك (المساجد ذات المحاريب) كثيراً منها في العمارة الإسلامية في العراق ومصر وسوريا وغيرها من البلاد التي تعددت بها المذاهب، فمثلاً في الجامع الأموي بالشام شيد به اثنا عشر محراباً في العصور المتأخرة، وكذلك في الموصل التي تعد مركزاً مهماً للفنون في العراق يوجد بها نموذجاً لذلك في المسجد الكبير الذي بني في عصر الزنكيين (٥٤٣-٥٦٦هـ/١١٤٨-١١٧٠م) (شكل٩)، ويأتي على رأس الجوامع جامع قرا عمر (١٠٩١-١٠٩٣هـ/١٦٨٠-١٦٨٢م)، وجامع أغاير (الأمراء) (١١١٤هـ/١٧٠٢م)، وجامع الباشا (١١١٧هـ/١٧٠٥م) فكل هذه الجوامع ثلاثية المحراب وفي مصر أيضاً توجد عدة جوامع ثلاثية المحراب.

وفي جنوب شرق الأناضول توجد جوامع لها محاريب كثيرة من بينها ما ذكرناه سابقاً في ديار بكر (شكل١٠) (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) والجامع الكبير في ماردين (٥٧٢هـ/١١٧٦م) (شكل١١) وهذه الجوامع كانت ثنائية المحراب.

أما الجامع الكبير في أرضروم (شكل١٢) (٥٦٣هـ/١١٨٠م) وجامع الريحانية في ماردين (في بداية القرن الخامس عشر ميلاد) (شكل١٣) فكلاهما ثلاثي المحراب

أما مسجد السلطان حسن في أورفا المحتمل تشيده (٨٦٧هـ/١٤٦٣م) (شكل١٤) والجامع الكبير في سلوان المؤرخ ٥٥٢هـ/١١٥٧مفكلاهما رباعي المحراب (شكل١٥).

ويمكننا أن نقول أن مثل هذه المحاريب لم تكن أجنبية بالطراز الأصلى بل أن بعضها لم يكن كذلك، وأكثرها وصل إلينا بشكله الأصلي وكما ذكرنا آنفاً فإن الجوامع العثمانية كانت ذات محراب واحد كنتيجة لإعتناقهم لمذهب واحد، في حين كانت هناك جوامع لها أكثر من محراب في فترة حكم ما قبل العصر العثماني.

أما عن التخطيط الأصلي للجوامع المتعددة المحاريب فتخطيطها عبارة عن تخطيط بسيط ممتد موازي على جدار القبلة. ذلك هو التخطيط كان رائجاً وشاعاً بلا استثناء في الجوامع ذات المحاريب المتعددة، سواء التي أقيمت خارج خارج الأناضول أو داخله لأن هذا التخطيط كان يتيح إمكانية وضع محاريب عديدة من خلال الفراغات الواسعة المطلة على جدار القبلة المطلة على بيت الصلاة كما كانت توجد فتحات لعقود متصلة بعضها البعض لها قواعد مصفوفة بشكل مستقيم في المناطق الشمالية الجنوبية من الأناضول وأحياناً في الموصل مثل جامع (حزام) (٩٨٢-٩٨٥هـ/١٥٧٤-١٥٧٧م) وعمر الأسود باشا، والعمرية (٩٧٢هـ/١٥٦٤م)، الأمراء (Agalar) حيث كانت تترك مساحات مفتوحة مغطاة من أعلى وأحياناً كما هو الأمر في الوقت الراهن صار من الممكن تخصيص قسم خاص لكل مذهب محيط بفتحات غير شاهقة الارتفاع في بعض الجوامع الحنفية مثل الجامع الكبير في ديار بكر، ولهذا السبب فإنه على الرغم من الإدعاء بأن هناك مخططات لجوامع عديدة في مناطق أخرى من معتنقي المذهب الواحد في الأناضول إلا أنه كان النموذج الأكثر شيوعاً في الأناضول وما حولها والموصل هو الجوامع ذات التخطيط المربع حتى أن الجوامع التي بنيت في عهد الأراتقة مثل الجامع الكبير في خاربوت (شكل١٦) والجوامع الكبير في ماردين وسلوان كانت كلها ذات تخطيط عامودي.

ولقد كان يوجد في بيت الصلاة أكثر من محراب للمذاهب المختلفة وظل ذلك الأمر شائعاً حتى عهد العثمانيين واعتباراً من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر، وبخاصة في عصر ملوك الامارات التركمانية فأن المساجد التي بنيت كلها في ديار بكر يقتصر فيها على محراب واحد خاص بالمذهب الحنفي فمثلاً جامع الفاتح باشا (٩٢٢-٩٢٦هـ/١٥١٦-١٥٢٠م) (شكل١٧) وجامع على باشا (٩٤١-٩٤٤هـ/١٥٣٤-١٥٣٧م) (شكل١٨) وجامع اسكندر باشا (٩٥٨هـ/١٥٥١م) (شكل١٩) فأنها كلها مربعة وذات قبة واحدة وكذلك مسجد ملك أحمد باشا (٩٩٥-١٠٠٠هـ/١٥٨٧-١٥٩١م) (شكل٢٠) ومسجد الدفتردار (١٠٠٣هـ/١٥٩٤م) ومسجد شيخ العرب (١٠٦٠هـ/١٦٥٠) فأنها كلها أيضاً ذات تخطيط مربع ولها محراب واحد في بيت صلاتها، لكن الوضع في الموصل يختلف بعض الشئ حيث جرت العادة واحد في بيت صلاتها لكن الوضع في الموصل يختلف بعض الشئ حيث جرت العادة هناك على وضع ثلاثة محاريب في بيت الصلاة مثل ما نرى في مسجد قراعمر (١٠٩١-١٠٩٣هـ/١٦٨٠-١٦٨٢م) ومسجد السلطان عويس حاجي جمعة (١٠٩٦هـ/١٦٨٥م) ومسجد الأمراء (١١١٤هـ/١٧٠٢م) ومسجد الباشا (١١٦٩هـ/١٧٥٥م) فقد استمرت تلك عادة ظلت مستمرة خلال الفترة التي لم يتأكد فيها الحكم العثماني بتلك البلاد ولكن بعد تأكده تم توحيد المذهب ومراعاة ذلك في تخطيط المساجد وذلك واضح في مسجد ربيعة خاتون (١١٨٠هـ/١٧٦٦م) ومسجد بكر أفندي (١١٩٣هـ/١٧٧٩م) ومسجد نعمان باشا (١٢١٢-١٢١٣هـ/١٧٩٧-١٧٩٨م) وغيرها من المسجد التي بنيت بعد ذلك التاريخ كلها صارت ذات محارب واحد.

وإذا كان العثمانيون أيضاً قد راعو في تخطيط مساجدهم اعتقاد مذهبين أو ثلاثة في تخطيط الجوامع في شرق وجنوب شرق الأناضول مثل «بنو أرتق» فأنهم حافظوا على نظام تخطيط الجوامع الكبيرة في ديار بكر وسلوان ولذلك وجدت في ديار بكر الجوامع الكبيرة ذات المساحة الواسعة مثل جامع «على باشا» وبهران باشا يبد أنه لا

يوجد جامع من الجوامع ذات المحاريب العديدة التي في جنوب شرق الأناضول قد شيد وفق نظام المنشأة وذلك يتضح في الجامع الكبير بسلوان المؤرخ ٥٥٢هـ/١١٥٧م في عهد الأرتقليين، حيث تصل عمارة القبة التي قطرها ١٣,٥٠م ولذلك ظل ذلك النظام متبعاً ومتطوراً ونظراً لأنه يمكن القول بأن مخططات المساحة المتنوعة في الجوامع الموجودة في الأناضول الغربية فقد ظلت عمارة القبة متطورة باستمرار حتى أنها بلغت نقطة ا لذروة في جوامع السلاطين الموجودة في اسطنبول وأدرنة.

عندما كان العثمانيون يسعون لنشر مذهبهم الحنفي فأنهم لم يهملوا دورة العبادة الخاصة بالمذاهب الأخرى حتى أنهم أنشأوا جوامع لإتباع المذهب الشافعي بجوار الجوامع الحنفية بل كانت هذه الجوامع توجد مشتركة مع المساجد الحنفية في ساحة واحدة وأروع مثل لذلك يتضح في مسجدي الفاتح وعلى باشا في ديار بكر علاوة على ذلك فإن الجامع الكبير في ماردين على سبيل المثال لم يحل دون وجود جوامع أخرى في بعض الأحيان لها ساحة واحدة لمذهبيين مختلفين منفصلاً عن أن السياسية المذهبية العثمانية كانت تقيم اسماً خاصاً للشافعية على يسار الساحة .

أن الخاصية الهامة واللافتة للنظر في المساجد الشافعية المستقلة التي أقيمت في عهد الدول العثمانية أنها كانت مخالفة لنظام المنشأة والقبة الشائع في ذلك الوقت وأنها كانت وفق النظام القديم أي نظام المربع والسقف الأفقي (المستقيم) أن المحاريب التي شيدت بقصد أن يؤم أمام كل مذهب الجماعة فيها يعتقد كما يتضح من أثار إمارة الشاه البيضاء أنها أتبعت في جامع السلطان حسن الذي في الرها وأنها كانت المحاريب على حائط القبلة تماماً وكذلك كان من الجائز أن يتبع ذلك في الجامع الكبير في سلون رغم أنه ذو محاريب أربعة ولم يعثر علي شئ علمي يفيد وجود شئ من ذلك خاصاً بالمذهبيين الأخريين أي الحنبلي والمالكي في مدن الأناضول ولعل ذلك مرده إلى أن معظم أهل السنة في تلك الأماكن كانوا من أتباع المذهبيين الأوليين.

وهناك مسألة فقهية أخرى أثرت على عدد المحاريب في ساحة الجامع ألا وهي أن إمامة الناس في الصلاة ينبغي أن تكون فقط في المحراب الأصلي في مواقيت الصلوات المفروضة.

وبناءً على ذلك الاعتقاد فإنه لم يكن مكروهاً أمامة المصلين في صلاة الجماعة في المحاريب الأخرى إذا كان عددهم محدوداً ولربما كانت المذاهب الفقهية سبباً في إقامة محاريب مستقلة لكل مذهب في كل جامع علاوة على وجود ما يشير إلى المحاريب في تخطيط ساحة المسجد لتوجيه المصلين إلى المحراب الخاص بمذهبهم.

ومن أمثلة ذلك مسجد قلعة أرضروم ذات المحاريب العديدة الموجودة في ساحة الجامع الكبير في سلوان كما توجد بالأناضول أيضاً في بعض جوامعها محاريب أنشئت لهذا الغرض نفسه.

وخلاصة القول هنا أن الروح الإسلامية قد تركت أثراً كبيراً على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية وكان تأثيرها ظاهراً أيضاً على منتجات الفنون التطبيقية المختلفة فضلاً عن تأثر عمارة المساجد على وجه الخصوص ببعض المذاهب الفقهية.

النتائج:

١- تحكم المذهب الديني في مدى سعة المسجد أو ضيقه، فالمساجد الشافعية كانت كبيرة الحجم لعدم أخذ الشافعية بفكرة جواز صلاة الجمعة في أكثر من مسجد في المدينة الواحدة بينما كانت مساجد الحنفية أصغر حجماً لإيجازة الحنفية صلاة الجمعة في أكثر من مسجد في المدينة الواحدة.

٢- لم يهتم العرب بالقبة في عمارة الجوامع اللهم إلا الجوامع الكبيرة الحجم بخلاف الأتراك الذين اعتادوا على نظام القباب في الجوامع وكانت لازمة من لوازم الجوامع في العمارة التركية الإسلامية ربما بسبب المناخ القارس البرودة شتاء.

٣- أدى أختلاف المذاهب إلى تعدد المحاريب داخل بيت الصلاة الواحد.

٤- لم تحل السياسة الدينية العثمانية التي كانت تسعى إلى نشر المذهب الحنفي دون اهتمام الدولة العثمانية بمساجد الشافعية لدرجة أنها كانت تجعل المسجد الشافعي مشتركاً مع المسجد الحنفي في ساحة واحدة.

٥- كان الاعتقاد السائد في المساجد العثمانية ذات المحاريب المتعددة أن المحراب الأصلي وهو المخصص للإمامة في الصلوات المفروضة. وأنه لا يجوز الإمامة في المحاريب الفرعية في الصلوات المفروضة.

****

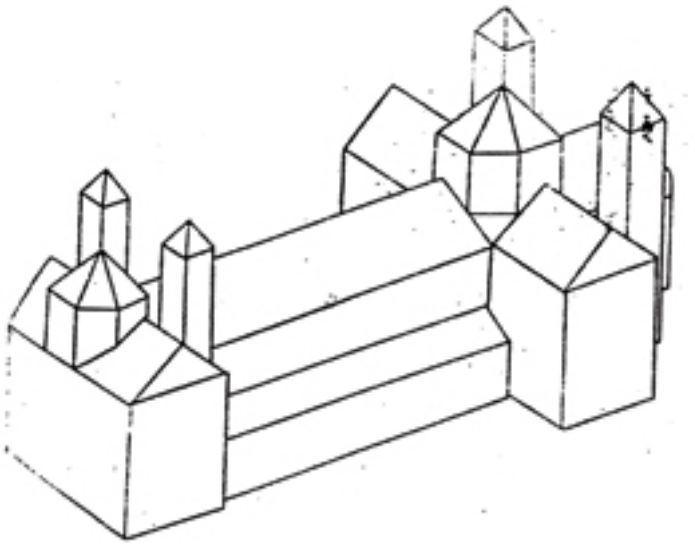

شكل رقم (١)

يمثل كاتدرائية (Spire) بروما . عن (Babelon)

شكل رقم (٢)

يمثل كنيسة سانت جاكوس دي بروما . عن (Babelon)

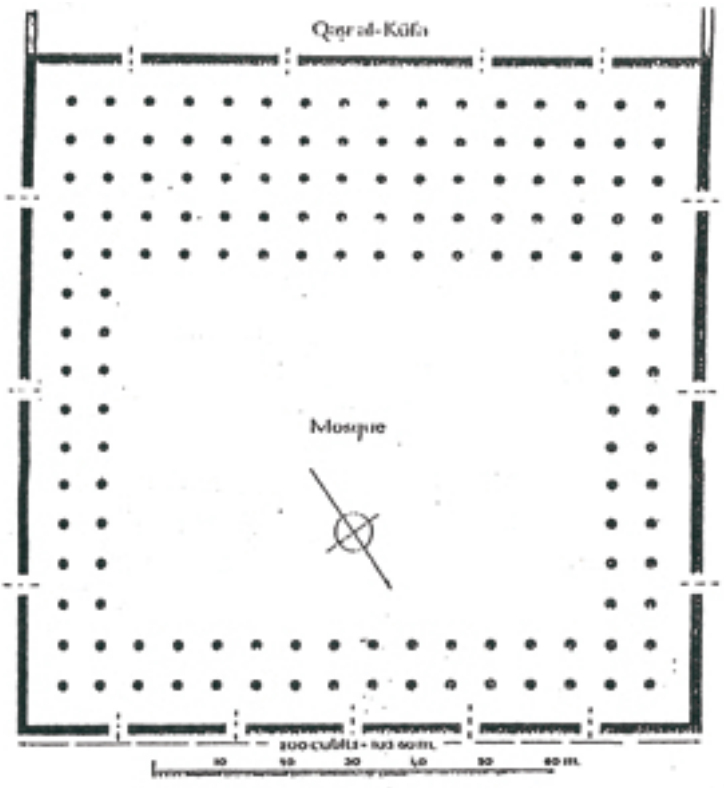

شكل رقم (٣)

مسقط أفقي لجامع الكوفة . عن كريزول

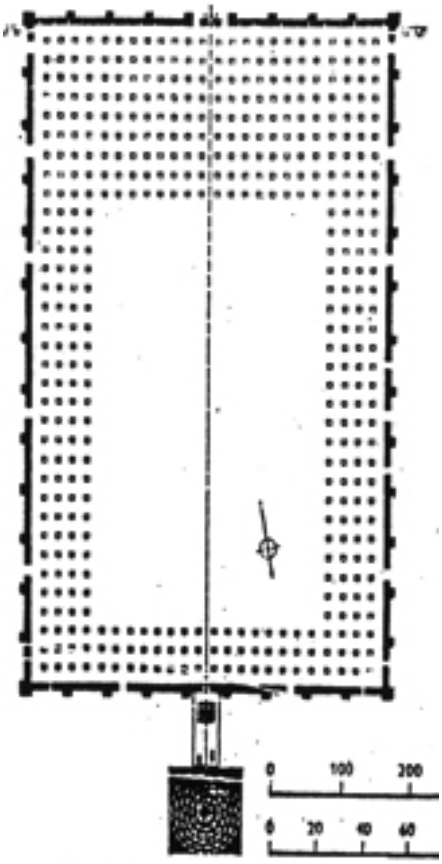

Şekil 4: Samerra Camii Kebir'in Plânı (Creswell)

شكل رقم (٤)

تخطيط جامع سامراء . عن (Creswell)

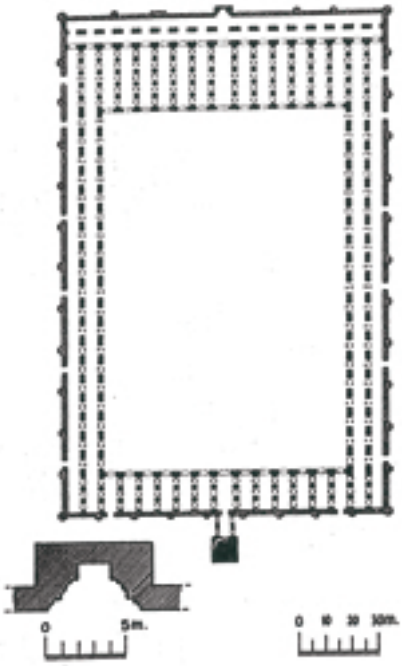

شكل رقم (٥)

مسقط أفقي لجامع أبي دلف بسامرا . عن كريزول

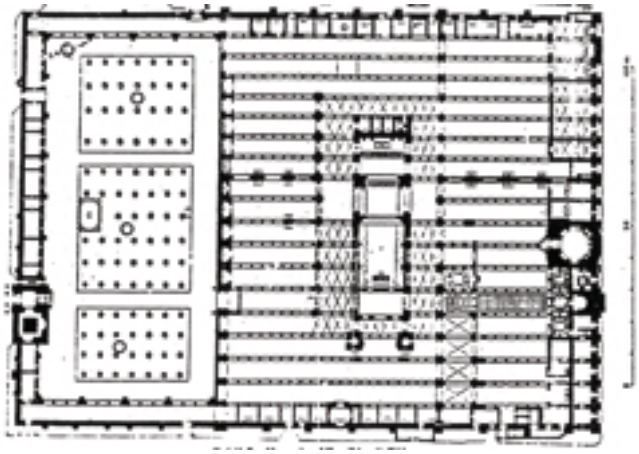

شكل رقم (٦)

تخطيط الجامع الكبير بقرطبة . عن (Soren)

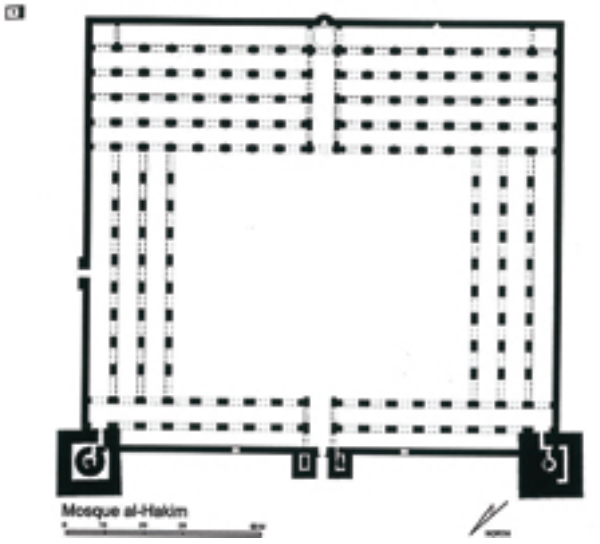

شكل رقم (٧)

تخطيط جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة . عن فكري

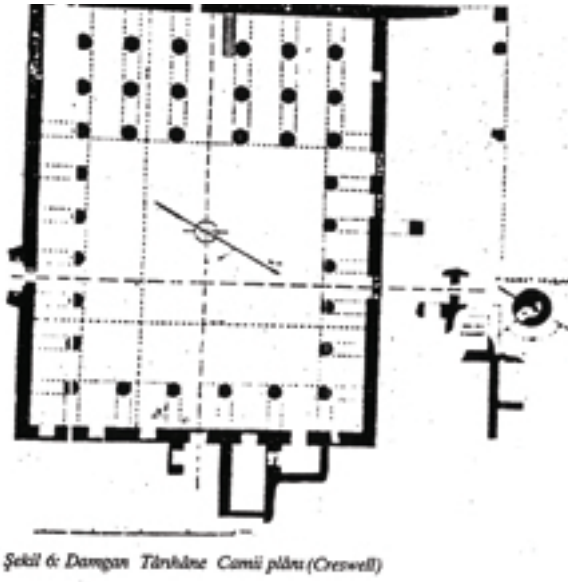

شكل رقم (٨)

تخطيط جامع طرخانة في دمغان . عن (Creswell)

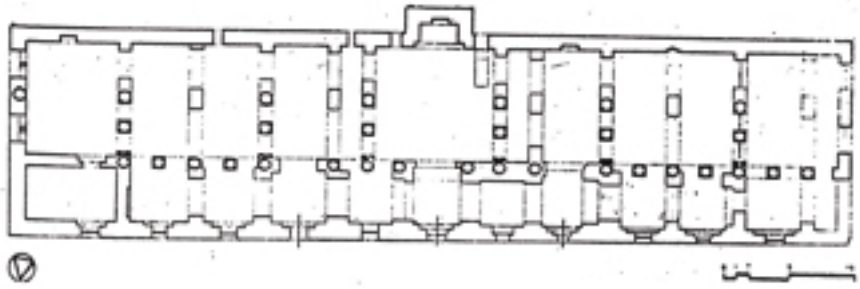

شكل رقم (٩)

تخطيط المسجد الكبير في الموصل . عن (Sozen)

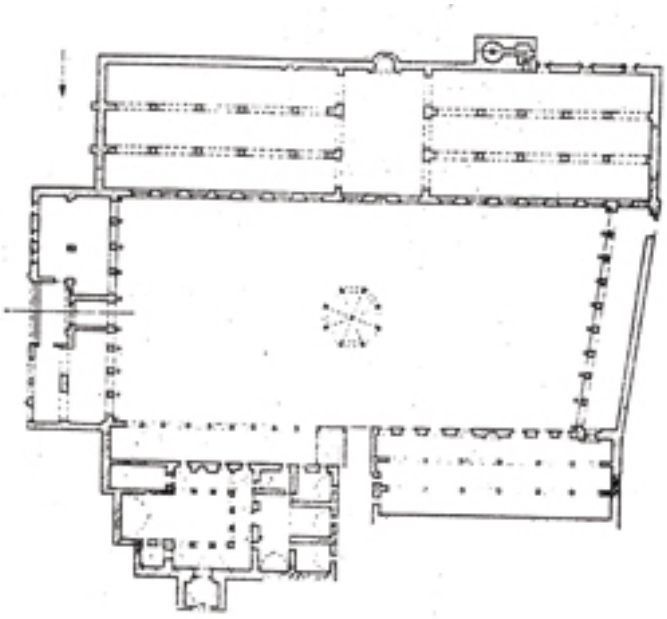

شكل رقم (١٠)

تخطيط الجامع الكبير في ديار بكر . عن (Akok)

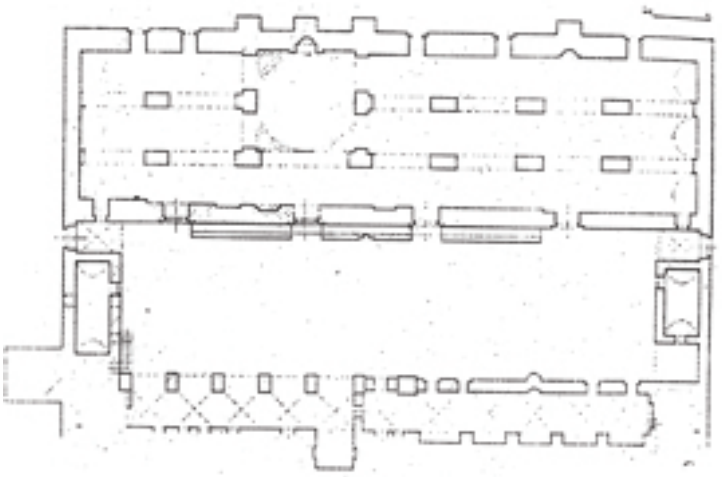

شكل رقم (١١)

تخطيط الجامع الكبير في ماردين . عن (Altun)

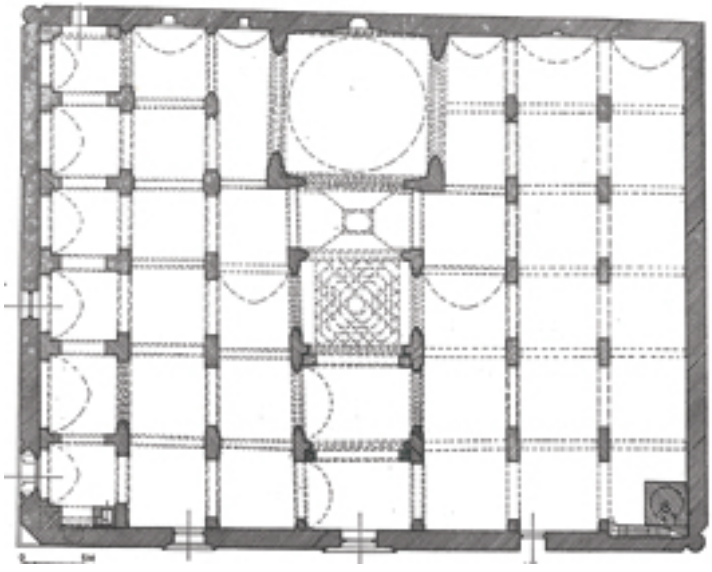

شكل رقم (١٢)

تخطيط الجامع الكبير في أرضروم . عن (Aslanapa)

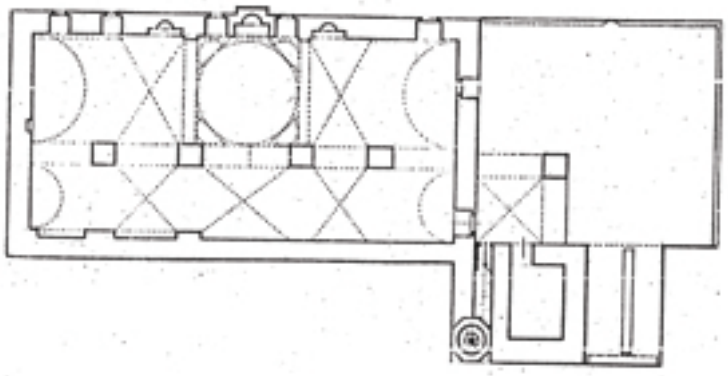

شكل رقم (١٣)

تخطيط جامع الحيانية في ماردين . عن (Altun)

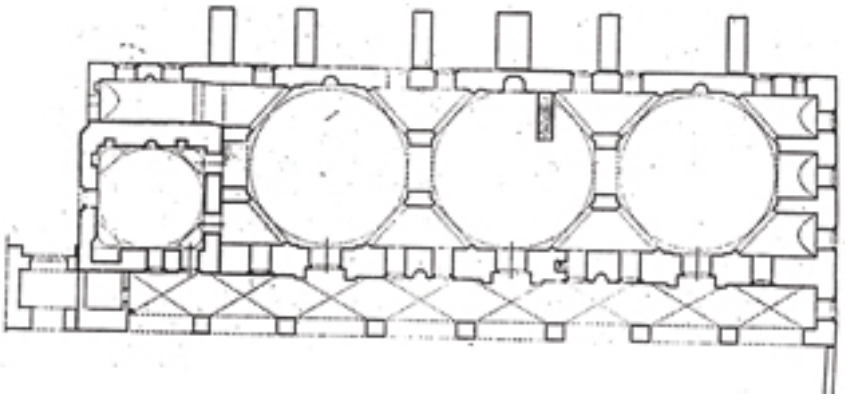

شكل رقم (١٤)

تخطيط حامع السلطان حسن في أورخا . عن (Sozen)

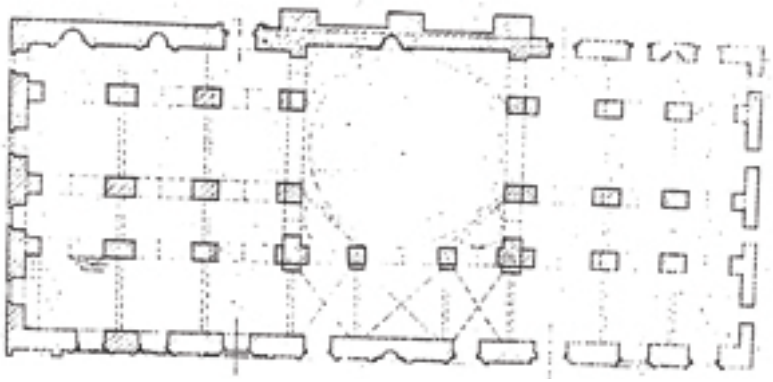

شكل رقم (١٥)

تخطيط الجامع الكبير في سلقان . عن (Altun)

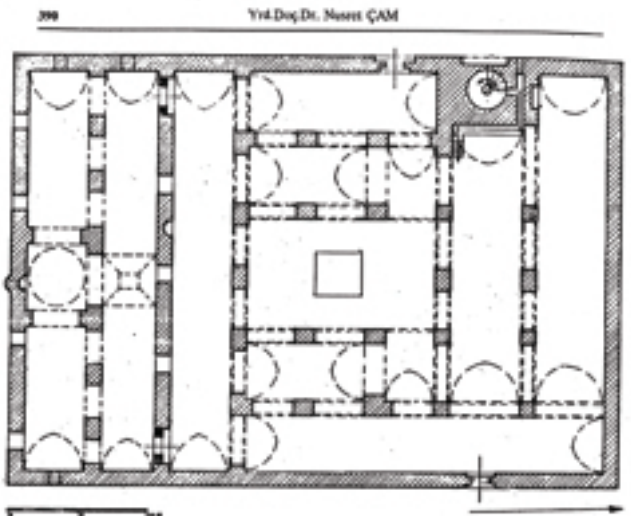

شكل رقم (١٦)

تخطيط الجامع الكبير في خاربوت . عن (Atun)

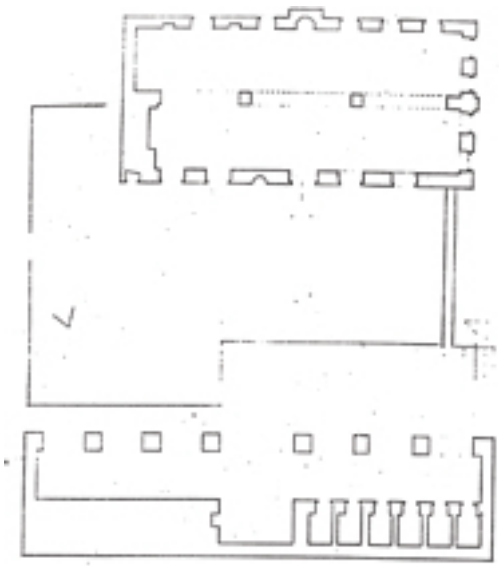

شكل رقم (١٧)

جزء من تخطيط جامع الفاتح باشا في ديار بكر . عن (Sozen)

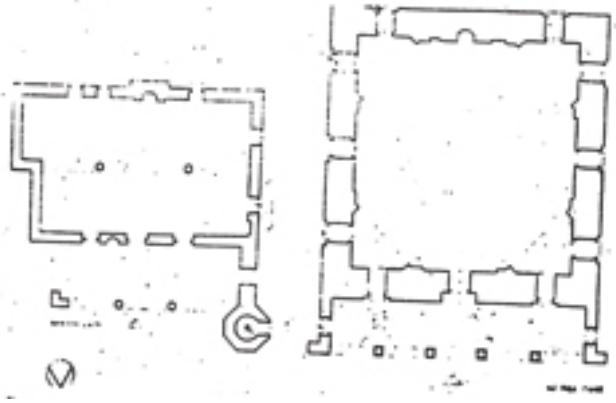

شكل رقم (١٨)

تخطيط جامع علي باشا في ديار بكر . عن (Sozen)

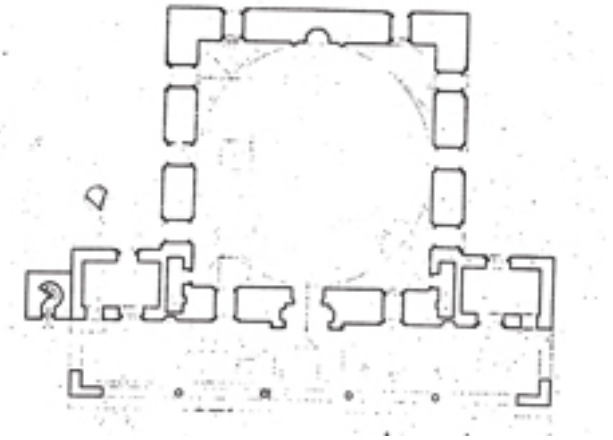

شكل رقم (١٩)

تخطيط جامع اسكندر باشا في ديار بكر . عن (Altun)

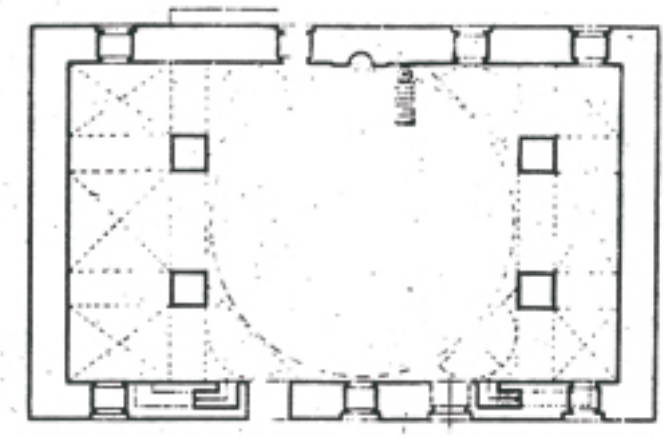

شكل رقم (٢٠)

تخطيط جامع ملك أحمد باشا في ديار بكر . عن (Sozen)

لوحة رقم (١)

عمامة لأحد الطرق الصوفية . عن (B.Karamagarali)

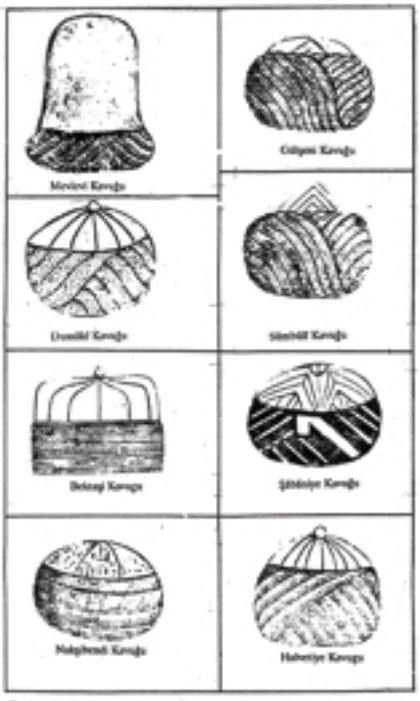

Resim 1: Çeşitli serikaların ait oldukları kumbasar)

لوحة رقم (٢)

أنواع مختلفة من العمائم والرايات والسناجق . عن (Kumbasar)

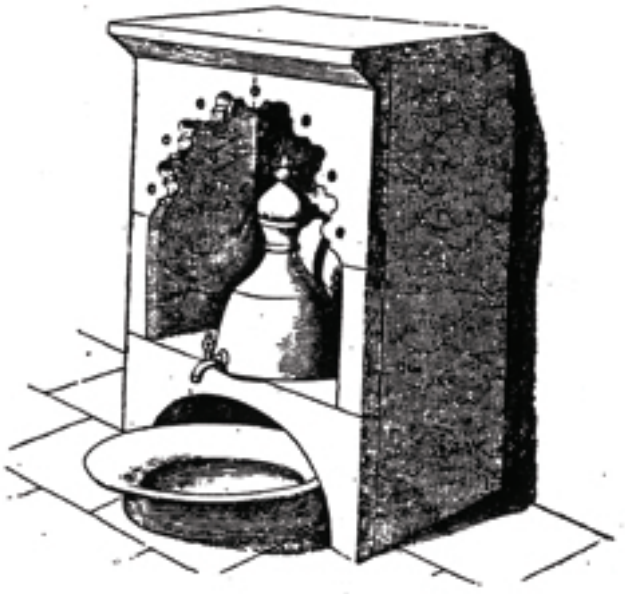

لوحة رقم (٣)

حنفية (صنبور) للوضوء . عن (Lane)